(١٤) خطبة له ﷺ

فى تذكر الموت

خطب النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال :

« أيُّها النَّاس .. أكْثِروا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللذَّات ، فإنَّكم إذا ذكرتموه فى ضيقٍ وسَّعه عليكم ، وإنْ ذكرتموه فى غِنًى بَغَّضَهُ إليكم. إنَّ المَنايا قاطعاتُ الآمالِ والليالى مُدنياتُ الآجَال . وإنَّ العبدَ بينَ يومين : يَوم قَدْ مَضَى أُحصِيَ فيه عَمَلُه فخُتِمَ عليهِ ، ويَوم قَدْ بَقِي لا يَدرى لعلَّه لا يصلُ إليه . وإنَّ العبدَ عِندَ خروج نَفْسِهِ وحلولِ رَمْسه[١] يرى جزاءَ ما أسلفَ وقلَّة غَناء ما خلَّف[٢] .

أيُّها النَّاس .. إنَّ فى القناعةِ لَغِنًى ، وإنَّ فى الاقتصادِ لبلغةً[٣]، وإنَّ فِى الزهدِ لَراحةً ، ولكلِّ عمل جزاء ، وكلُّ آت قريب » .

(ذكرها العلاّمة بهاء الدين محمد العاملى فى الكشكول)

فى هذه الخطبة ـ كما قرأنا ـ يخاطب النبى ﷺ المسلمين جميعًا[٤] مرغباً إياهم فى الإكثار من ذكر هاذم اللذات ، وهو الموت : وذلك لأن

---

(١) الرمس ـ بفتح فسكون ـ : التراب ، سمى به القبر .

(٢) الغناء ـ بفتحتين ـ : الاكتفاء ، أى : يرى قلة كفاية ما ترك .

(٣) البلغة : بضم فسكون ـ : ما يتبلغ به من العيش .

(٤) فى شخص هؤلاء الذين يخاطبهم .

الإكثار من ذكره ـ كما قال النبى ﷺ ـ سيجعل الإنسان غير غافل، وسيجعله دائماً وأبداً زاهداً فى هذه الحياة الأولى التى أولها بكاء، وأوسطها عناء، وآخرها فناء:

﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(١).

وحسب الإنسان أن يذكّر نفسه دائماً وأبداً بهذه الحقيقة، حتى يعتبر نفسه ضيفاً فى هذه الحياة المؤقتة، وحتى يكون كذلك دائماً وأبداً على أتم استعداد للقاء الله تبارك وتعالى، وذلك باغتنام كل لحظة فى حياته، حتى إذا ما انتهى أجله وحانت لحظة رحيله كان سعيداً بهذا السفر الطويل إلى الله تبارك وتعالى، وفى الحديث:

« **مَنْ أحبَّ لقاءَ اللهِ أحبَّ اللهُ لقاءَه، ومَنْ كَرِهَ لقاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لقاءَه** ».

وقد قرأت أن بلال بن رباح رضي الله عنه أثناء وفاته كانت ابنته تبكى بجواره وهى تقول: وا أبتاه، وا كرباه، وا حزناه.. فانتبه وهى تقول هذا، فزجرها ونهرها وهو يقول لها:

« **لا تَقُولى ذلكَ: لا كَرْبَ على أبيكِ بعدَ اليومِ، اليومَ نَلْقَى الأحبَّة، محمداً وحِزْبَه** ».

---

(١) أى: لهى الحياة الحقيقية. (والآية من سورة العنكبوت: ٦٤).

هذا بالإضافة إلى أن الإنسان عندما سيكثر من ذكر هاذم اللذات لن يكون من هؤلاء الذين يطمعون أو يبخلون، وإنما سيكون من القانعين الباذلين . . وهم فى نفس الوقت ينفذون قول الله تعالى :

﴿وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾(١) .

وذلك لأنهم يعرفون أن الزهد ليس كما يفهم بعض الناس ـ وهو أنه انقطاع للعبادة وابتعاد عن ميادين العمل للدنيا ـ وإنما هو كما قال العلماء :

«ليسَ الزاهدُ مَنْ لا مالَ عِندَه ، بَلِ الزاهدُ مَنْ لم يشغل المالُ قلبَه ، وإنْ أُوتِيَ مثلَ ما أُوتِيَ قَارُون » .

فلندرك جميعاً أبعاد هذا ، ولنكن من الذين عرفوا الله تعالى فعرفهم، وعرفوا الدنيا فرفضوها ، وعرفوا الآخرة فطلبوها .

فعن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبى، فقال :

«كُنْ فى الدُّنيا كأنَّكَ غريبٌ أو عابرُ سَبيل » .

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول :

---

(١) سورة القصص : ٧٧ .

«إذا أمسيتَ فلا تنتظرِ الصَّباح ، وإذا أصبحتَ فلا تنتظرِ المَساء ، وخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرضكَ، ومنْ حَياتكَ لمَوتكَ» .

(رواه البخارى)

قالوا فى شرح هذا الحديث : معناه : لا تركن إلى الدنيا ولا تتخذها وطناً ، ولا تحدِّث نفسك بطول البقاء فيها ، ولا بالاعتناء بها ، ولا تتعلق منها إلا بما يتعلق به الغريب فى غير وطنه ، ولا تشتغل بما لا يشتغل به الغريب الذى يريد الذهاب إلى أهله . . اهـ[1] .

* * *

(١) من كتاب «رياض الصالحين» للنووى .